جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

مخبر البحث في الدراسات الأدبية والإنسانية

الندوة التّكوينية لطلبة الدكتوراه: الخطاب الصوفي في الرواية العربية المعاصرة

يوم 10 جانفي 2024.

عنوان المداخلة: حضور الخطاب الصوفي في الرواية السير–ذاتية الجزائرية المعاصرة . قراءة في رواية "سيرة المنتهى عشتها... كما اشتهتني" . لواسيني الأعرج.

الباحث(ة): أحلام مرغادي /طالبة دكتوراه سنة خامسة **التخصص:** أدب عربي حديث ومعاصر

المؤسسة: جامعة مولود معمري . تيزي وزو . **الإيميل المهني:** ahlem.merghadi@ummto.dz

ملخص:

لازالت الرواية إلى يومنا هذا مدار التجريب وحقل الممارسات الخطابية المتنوعة، إذ لم تنأى كعادتها عن كل ما يعرفه عصرنا من تحولات تنقلها من حالة الحداثة إلى ما بعدها، ليخوض الكتاب فيها تجربة التهجين السردي بعيدين عن فكرة الجنس الصافي. وتعد الرواية الصوفية ثورة على تقاليد وأعراف الكتابة السردية، وذلك لحضور الفعل الصوفي في لغتها وتقنيات بناءها. ولقد جاءت رواية" سيرة المنتهى...عشتها كما اشتهتني" لواسيني الأعرج انموذجا لهذا النوع من الكتابة الذي لم يكتف الكاتب فيه بتجريب فكرة مزج الخطاب التخييلي بالخطاب الصوفي، وإنما وضع هذا الكل في قالب سردي هجين هو الرواية السيرة ذاتية. وتأتي هذه المقاربة كمحاولة للحفر خلف هذا الخطاب السردي الهجين والبحث خلف ما توارى من حضور للفعل الصوفي داخل متن العمل.

الكلمات المفاتيح: الرواية، الرواية السيرذاتية، الخطاب الصوفي.

Summary :

To this day, the novel remains a sphere of experimentation and a field of diverse rhetorical practices, As she did not distance itself as usual, from everything that our era knows in terms of transformation that take it from the state of modernity to what comes after it. The book engages in the experience of narrative hybridity, far

from the idea of pure sex. The sufi nove lis a revolution against the traditions and customs of narrative writing, This is due to the presence of Sufi action in the language and construction techniques. The novel, The Biography of (Al–Muntaha…I Lived As You Desired) by Wasini Al–Araj was an example of this type of writing in which the writer did not limit himself to experimenting with the idea of mixing imaginative discourse with Sufi discourse. Rather, he placed all of this in a hybrid narrative from, which is the autobiographical novel. This approach come as an attempt to dig behind this hybrid narrative discourse and search behind the hidden presence of Sufi action within the text of the work.

Keywords : novel, autobiographical novel, Sufi discourse.

مقدمة:

لازالت الرواية إلى يومنا هذا مدار التجريب وحقل الممارسات الخطابية المتنوعة، إذ لم تنأى كعادتها عن كل ما يعرفه عصرنا من تحولات تنقلها من حالة الحداثة إلى ما بعدها، ليخوض الكتاب فيها تجربة التهجين السردي بعيدين عن فكرة الجنس الصافي. لتصبح الرواية مسرح المتخيل مع التاريخي، والأدبي مع الفلسفي، مع الصوفي. هذا الأخير . أي الخطاب الصوفي . الذي عرف حضورًا مكثفًا برمزيته، وسرديته الخاصة، ولغته الشفافة في الرواية بمختلف لغاتها وتوجهاتها.

ويعد الروائي الجزائري واسيني الأعرج(1954م)أهم الكتاب الذين خاضوا غمار التجريب في مختلف كتاباته الروائية، وهو ما يميزه كمبدع يعشق الكتابة المختلفة/ المخاتلة، التي تجعل من القارئ شريكًا في لعبته السردية، أين تتمازج ضروب السرد من تخييل وشعرية وقص. وتأتي روايته "سيرة المنتهى...عشتها كما اشتهتني" نموذجا لهذا النوع من

الكتابات الهجينة، التي لم يكتفي واسيني بأن زاوج فيها بين جنسين سرديين أحدهما هو الرواية والآخر هو السيرة الذاتية في شكل جنس ثالث هو الرواية السير–ذاتية التي أصبحت قبلة الكتاب منذ عهد قريب، وإنما جعلهما يتشابكان مع كتابة من جنس آخر يعبق التاريخ بين جنباتها وهي

الكتابة الصوفية. هذا ما قادنا كقراء لمقاربة عمل روائي سير–الذاتي في قالب سردية مختلفة، متسائلين عن السبب وراء اختيار واسيني الخطاب الصوفي ليدبج به روايته السيرية؟ وأين يمكننا كقراء مفترضين أن نقبض على تجليات هذا الخطاب داخل أقاليم الرواية؟

1. محتوى السيرة

يأخذنا البطل/ الكاتب في رواية "سيرة المنتهى" في رحلة تخييلية، يستهلها بقص رؤية يراها البطل بعد أن أخذته سنة من نوم وهو يضع على صدره كتاب" الإسرا إلى مقام الأسرى" أو "كتاب المعراج" للشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، وتحديدا في صفحة يصف فيها ابن عربي معراجه لسدرة المنتهى. في تلك الرحلة التخييلية يختار الشيخ الأكبر البطل ليكون رفيقه في معراجه نحو العالم العلوي.

تبدأ عملية السرد لحظة انفصال الكاتب عن جسده في الدنيا ومرافقته للشيخ. وعبر هذا العروج تتوالى الحكايات وتتقاطع العوالم؛ لتكون أولى الحكايات قصة الجد الأول الروخو الذي لا تنفصل سيرته عن تاريخ الأندلس، وهو ما سبق أن شغل الكاتب في أكثر من رواية كالبيت الأندلسي . حارسة الظلال... كما كان للجد الأقرب . والد والد البطل . حضورا طاغيًا يثري حكايات الرواية. ومنها حكاية المرأتين(نينوت وممات) اللتين ألجأهما الجد عنده، وكفاهما ذل السؤال والحاجة دون أن يسألهما عن شيء يخص حياتهما السابقة حتى وافته المنية. وقصص أخرى لازالت عالقة في ذاكرة البطل/ الطفل/ المراهق لينثرها الكاتب على مدار صفحات الرواية بأجزائها.

ختم الكاتب روايته بقسم عنونه بـ:(بعض ما خَفِيَ من سيرة المنتهى عشتها كما اشتهتني)، تحدث فيه عن النهاية التي أراد الوصول إليها وقد وصلها رغم المشقة والتعب وذاكرة مثقلة بأحزان وذكريات ستين سنة هي العمر الافتراضي للكاتب، خطها في سيرة عاشها كما اشتهته الحياة أن يعيشها قدرًا، وأن يكتبها ويسردها للقارئ كما يشتهي هو، بلغته السردية المخاتلة، داخل عوالم

تخييلية صوفية عميقة. برر فيها للقارئ جدوى كتابة هذه الرواية التي أرادها آخر محطات السير، وأولى منازل الغياب. كما كان الصوفي يعد حياته مرحلة لابد منها للوصول إلى عالمه الروحاني غير مبالٍ بالمشاق التي تعترض سيره.

سيرة المنتهى هي سيرة الكاتب نفسه، فجميع تفاصيلها واقعية إلى حد كبير، كررها واسيني في كثير من كتاباته الإبداعية كـ" ذاكرة الماء" فحضور شخصيات مثل يمة ميزار، والوالد الشهيد، والإخوة، كذلك تفاصيل المولد والنشأة وغيرها كثير تكرر كما هو في ذلك العمل. لتكون الرواية سيرة ذاتية للكاتب تَعالق فيها المرجعي مع التخييلي مع الصوفي، في سينفونية كانت معزوفة واسيني طيلت 497 صفحة، نقلنا من خلالها نحو عوالم متباينة منها ما نعرفه ومنها ما نجهله، ومنها ما كسر أفق توقعنا وأدخلنا في متاهة اللعبة التي يتقنها الكاتب، لعبة التورية والتضمين، ومشاكسة القارئ الفطن الذي لازم الكاتب خلال كثير من أعماله الروائية ليصل إلى هذا العمل وهو يتوقع سيرة ذاتية للكاتب كما دبج بذلك غلاف كتابته، ليجد نفسه داخل عوالم سردية متنوعة، وخطابات يتعالق فيها الخيال مع الواقع مع عالم التصوف، ليكون الخطاب الصوفي هو سيد الحكي وسيرة البطل/ الكاتب.

2. حضور الخطاب الصوفي في سيرة المنتهى:

يتميز الخطاب الصوفي بشفافية عالية وملامسة لشغاف الروح وتلافيف القلب، لذا كان الحديث عن القلب وصفاءه ونقاءه هو ما دار بين البطل وجده الرخو أثناء ذلك المعراج. وهو خطاب مأخوذ من الصفاء، وذلك لصفاء أسراره، ونقاء آثاره[1]، وهو ما يتماشى مع خطاب الذات وهي تبحث عن ذاتها هائمة في هذا الوجود الوسيع. فتتلبس ثوب الصوفي وجميع حالاته من

[1] ينظر: إحسان إلهي ظهير، التصوف المنشأ والمصادر، إدارة ترجمان السنة، باكستان، ط1، 1986، ص20.

خلوص الباطن من الشهوات والكدرات[2]، إنه حالة تتعلق بنقاء الروح وهي تنفصل عن الجسد المادي ليصفى القلب. وهو ما جعل الكاتب يَمهر نصه بصبغة دينية روحية عندما اختار أن يتناص عمله التخييلي . رغم أنه سيرة ذاتية أي ذا مرجعية واقعية . مع خطابات ونصوص دينية وصوفية، يظهر هذا جليا عندما جعل الكاتب رحلة البطل مع أحد كبار الصوفية ابن عربي وليس غيره.

ولنا أن ندخل متن الرواية لنلمس مدى تجاوب بقيت أجزاء العمل مع هذه التقنية التي اختار واسيني أن ينسج بخيوطها ثوب روايته. باجتياز أولى العتبات النصية وهو العنوان مع باقي الموازيات النصية (المقدمة، التصدير، الإهداء...). مقاربين حضور الخطاب الصوفي بلغته الشفافة وممارساته الروحية في ثنايا هذا العمل.

1.2. عتبة العنوان:

يعد العنوان مع باقي مؤطرات النص كالغلاف والإهداء والتصدير وافتتاحية الفصول، والعناوين الفرعية نصوص موازية، وقرائن دالة على كلية النص وبنيته الداخلية. فهو كالمفتاح للنص، وعتبته الأولى لذا عده السيميائيون" مصطلحا إجرائيا ناجحا في مقاربة النص الأدبي"[3]. ليكون العنوان أولى المحطات اللغوية التي يستنطقها القارئ/ الناقد باعتباره شفرة دلالية عميقة المعنى، وبنية سطحية تخول له الولوج لذلك العمق بما تمده به من إشارات وعلامات دالة، تكون

---

[2] لعلاونة محمد الأمين، تجليات ما بعد الحداثة في الرواية الصوفية المعاصرة . "رواية الخيميائي . و" قواعد العشق الأربعون"، و" السيمورغ" . أنموذجا، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه . ل.م.د . إشراف: علي حمدوش، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري . تيزي وزو . الجزائر، ص32.

[3] جميل حمداوي، السيميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، الكويت، مارس ع(3)،1996م،ص90.

بطاقة هوية النص وجنسه الإبداعي. وتحقق إغواء وجذب القارئ نحو منطقتها المعتمة، لتكشف له عن مضمون النص ولو ضمنيا[4].

ولأن النص الذي نحن بصدده يحمل خصوصية أجناسية باعتباره رواية سيرذاتية، تأتي أهمية دراسة عنوانه انطلاقا من الأهمية الخاصة له في السرد(السيرذاتي) حيث يحدد عقد القراءة(الميثاق)[5]، فمن خلال العنوان الرئيس أو العنوان الفرعي الذي يضعه المؤلف على الغلاف يتحدد عقد القراءة، ويضبط مسارها كونه يعطي معلومات مسبقة عن نوايا الكاتب، وإن كان لا يمكن الجزم بها إلا بعد الانتهاء من قراءة العمل بأكمله[6]. فالعناوين في "رواية السيرة الذاتية هي عناوين تعبر عن فكرة داخل النص، أو تعبر عن مضمون النص، أولا تعبر عن شيء داخل النص كما أن العنوان الفرعي "رواية" لا يعمل بالضرورة كدال على النوع الأدبي"[7]. اختار الكاتب لعمله عنوانًا مغريا يشعل فضول القارئ ويربطه بدلالات موحية تعود به إلى أعماق

---

[4] ينظر: شيخ عبد الرزاق، قراءة في عنوان وغلاف رواية سيرة المنتهى، للروائي واسيني الأعرج، حوليات الآداب واللغات، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف، المسيلة. الجزائر، عدد 09 مجلد 02 نوفمبر 2017، ص133.

[5] نقصد بالميثاق مجموعة مرتكزات بنود ميثاقٍ/عقد (Un Acte) بين القارئ والكاتب، يتعلق أساساً بفعل الكتابة الذاتية الخالصة، التي تُفيد من الأحداث الماضية وتسترجعها آنيًا برؤية فردية هي خلاصة الاحتكاك بالعالم والوعيّ به و بأشيائه، ثمّ إعادة تقديمها للقارئ عبر خطاب ذاتي خالص. كما تجعل القارئ المفترض يدخل النصّ وهو متيقنٌ بواقعية ما يقرأ، أيّ أنّ النّص الذي بين يديه يحكيّ سيرة كاتبه الذي وضع اسمه على غلاف الكتاب. ينظر: فيليب لوجون، السيرة الذاتية(الميثاق والتاريخ الأدبي)، تر: عمر حلي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت/لبنان، 1994، ص 22.

[6] المرجع السابق، ص134.

[7] ممدوح فراج النابي، رواية السيرة الذاتية في مصر، دراسة في التأصيل والتشكيل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط1، 2011م، ص129.

الخطابات ذات اللغة الشفافة والمثيرة. فبدأ أولا بتحديد أجناسية النص باعتباره يتموقع في المنطقة الوسطى بين الواقع والتخييل، وهي محاولة من الكاتب للإشارة إلى أن النص يختلف عن بقيت الكتابات التي خاضها من قبل(الرواية). جاء الغلاف موشحًا بعبارة(رواية سيرة) وهذا تحديد أجناسي للنص ينبه القارئ بأن يدخل عالم الرواية وهو متسلحٌ بمعرفة مسبقة عن هوية الرواية السيرذاتية التي تُسرد فيها ذات الكاتب تخييليًا متموضعة بين منطقة وسطى تتأرجح بين المرجعية الواقعية والتخييلية.

جاء عنوان النص في بنيتين تركيبيتين: الأولى(سيرة المنتهى) والثانية(عشتها كما اشتهتني)؛ تميز الشطر الأول من العنوان (سيرة المنتهى) بدلالاته على مصطلح السيرة التي هي حكي يقوم به شخص عن حياته الخاصة غير أن اقترانه بكلمة(المنتهى) جعلت العبارة تنزاح عن هذه الدلالة الأولية والسطحية لتتناص مع الخطاب الديني وتفتح مدارج التأويل "فتلتبس(سيرة) في بنائها اللغوي بـ(سدرة)، فلم تعد سيرة المنتهى عملا سيريا سجّله كاتبه في خواتيم رحلته الخيالية، يجمع فيه ما تشذّر من تفاصيل حياة امتدت ما ينيف عن الستين سنة ينتزع به ماضيه من مخالب النسيان، بل تلتبس التسمية بـ(سدرة المنتهى) فنغدو أمام دلالة إضافية تحمل دلالات الرحلة المعراجية إلى السماء، حيث منتهى الرحلة عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى،(سدرة المنتهى) بحسب المرجعيات الإسلامية"[8].

تشترك دلالة عنوان سيرة المنتهى بما تحمله عبارة سدرة المنتهى؛ ففي المرجعية الدينية وفي عقيدتنا كانت الرحلة نحو سدرة المنتهى سلوة لروح النبي . صلى الله عليه وسلم . وتخفيف له من عناء شق عليه، أي هي رحلة كسرت نمط حياة عهده النبي بحياة أخرى في عالم آخر كانت فيه(سدرة المنتهى) نهاية الرحلة النبوية، كذلك كانت (سيرة المنتهى) رحلة روحية لا جسدية، ونهاية طريق شاق وصعب، قادت البطل/الكاتب رفقة الشيخ الأكبر ابن عربي وكتابه. لتكون

[8] شيخ عبد الرزاق، قراءة في عنوان وغلاف رواية سيرة المنتهى، للروائي واسيني الأعرج، ص135.

بذلك عملاً روائيًا كسر الطريقة المألوفة ونمطية السرد عند واسيني. ومن كلا العالمين: عالم الواقع وعالم الخيال تتشكل عوالم النص الفنية، وتتداخل معطياته وتتشابك أحداثه، التي يروم القارئ مكاشفتها بالقراءة والتأويل، لتظهر أمامه خيوط وإيحاءات رحلة المعراج التي تنبثق من خلالها رحلة الكاتب واسيني الأعرج نحو بناء خصوصية فنية لعمله هذا، وترسم معالم سيرته الشخصية والروائية.

وقبل اجتياز عتبة العنوان لابد لنا من تبيين مدى قدرة الكاتب على مجارات تقاليد كتابة الرواية السير– ذاتية جنبا إلى جنب مع فنيات حداثية، تظهر اطلاعه على كل جديد في عالم الرواية؛ فموضة الرواية الصوفية المعاصرة أو الرواية المطعمة بالفعل الصوفي أصبحت من الأنواع السردية الأكثر كتابة وإقبالاً من طرف الكتاب؛ ولنا في رواية" قواعد العشق الأربعون" للكاتبة التركية إيليف شفق خير مثال عندما جعلت من أبطال عملها شمس التبريزي وتلميذه جلال الدين الرومي.

2.2. عتبة التصدير:

يقدم واسيني الأعرج لروايته " سيرة المنتهى" بمقبوسات منها نصوص دينية (قرآن، حديث نبوي شريف)، و نصوص صوفية تعتبر عتبات، كان أولها " حديث الإسراء" وثانيها كلام لابن عربي من كتابه "الإسراء إلى المقام الأسرى أو كتاب المعراج". المقبوسان الأول والثاني يشرعان الباب للمخيال الديني، وهو الحركة الكبرى في الرواية (الصوفية)، ومنذ مفتتح الرواية أيضًا، ليكون العمل كما أوردنا سابقا نابعًا من الثورة في عالم الكتابة الروائية بما يعرف بالرواية الصوفية.

ظهرت في الرواية إشارات وعلامات دالة على تعالق عتبات النص من عنوان وتصدير بسدرة المنتهى، منها الإشارة إلى تربة المنتهى(القبر)، وكذلك غيمة المنتهى: لحظة الموت التي لبسها الكاتب في معراجه، ومشى على أرضها اللدنة، وبدأ يطير في أعماقها باتجاه غير

معلوم، في غمرة شلالات النور. ليتقدم الكاتب مولاه السالك (رجل ليلة الرحيل . الموت) مخاطبًا إياه" واسيني يا ابني... أمامك مسالك الأنوار الكثيفة التي تعمي الأبصار بقوة... أعبرها بلا تردد فأنت سيد شأنك"[9]. ويبلغ الكاتب في معراجه جبل النار(تَيغْرَاوْ) حيث نزل الجد البعيد(الرخو)في سالف الأزمان بعد الهزيمة الأندلسية. وثمة في عش النسر قمة الجبل حيث يرى الصوفيين يرقصون كما في الحضرة، وبينهم المسيحي واليهودي في إشارة إلى وحدة الأديان، فالجميع يتبادلون النشيد باللاتينية والعبرية والعربية.

هذه الحلقات الصوفية أو الحضرة كانت حاضرة بقوة في رحلة الكاتب[10]، تلتقي فيها جميع العقائد والأديان: مسلمون، مسيحيون و يهود يلتفون حول بعضهم البعض في رقصات متشابكة، وفيه دلالة ضمنية لتعايش الأديان. فالكاتب يريد أن يقول أن الحركة الصوفية حركة روحانية لا تنتمي لأي عقيدة ولا اتجاه، حركة انسانية تهتم بروح الإنسان لا اتجاهه وهويته وميولاته العقدية. لذا اختار أن تتحرر روحه عن جسده الفاني والمادي وتلتحق بتلك الحلقات الروحانية، في عملية تطهر وانفتاح، وتقبل للآخر كيفما كان.

في مقطع سردي آخر نرى البطل يواجه موته أما تابوت فيه من لا يشبهه، لكن عندما اقترب منه صعق لأنه " كان أنا"[11]. وتأتي المواجهة بين روح البطل وشبيهه في التابوت على إيقاع الأناشيد الغريغورية[12]، والصوت الكنسي الممزوج بجرح التراتيل الإسلامية. يستمر إسراء البطل نحو عالمه الروحاني. لنرى هذه المرة شخصية أخرى تقوده في معراجه هي الجدة(حنة فاطنة) التي تبدو كحفنة من نور، تقود حفيدها نحو عوالم نورانية ، يبتدع من خلالها الكاتب

---

[9] واسيني الأعرج، سيرة المنتهى" عشتها...كما اشتهتني، ط5، 2015، دار البغدادي للطبع والنشر والتوزيع، الجزائر العاصمة، ص 26.

[10] ينظر: السيرة، ص 37.

[11] السيرة، ص40.

[12] نسبة إلى نص نيكوس كزانتزاكي/ تقرير إلى غريكو، ينظر السيرة، ص12.

نهايات مختلفة عما ترويه إلى مقام الشيخ الأكبر ابن عربي، وحوله سادة الخير والشهداء: الحلاج، والبسطامي، والجنيد. يقول:" (...) وتعريت معها كاشفا عن علامات عميقة في جسدي تشبه الجروح والحروق التي مرّ عليها زمن، قبل أن ألبس للمرة الأخيرة غيمة المنتهى التي ألمس للمرة لأولى جلدها الناعم وأمشي على أرضها اللدنة. لم أفكر في أي شيء. أغمضت عيني فقط لكي لا أسقط من علو تخيلته شاهقا. فبدأت أطير في أعماق الغيمة، في غمرة شلالات من النور التي لم أكن قادرا على النظر فيها بالشكل الذي اعتدته. كنت أطير باتجاه غير معلوم لكن بلذة غريبة لم أتعود عليها"[13].

وتمتد هذه الرحلة النورانية صفحات عدة من الرواية، يقطع خلالها الكاتب أودية تلمع كأنها الذهب أو الفضة، يتعب في مسيره فيها، فيخلد إلى الراحة تحت شجرة النور في استراحة محارب. ويبقى هناك ومعه يتواصل سرد الحكايات. بين تاريخ قديم يضرب في أعماق الذاكرة، و أحداث وحوادث عايشها البطل في واقع حياته.

يتواصل السرد لنجد الكاتب يتحدث عن جنازة جده لوالده الذي كان يعين المحتاج ويكفله دون أن يَشُقْى عليه في السؤال. فيستذكر أصوات المقرئين الذين يلتفون حول نعش الميت" وهم ينشدون نشيدًا قرآنيا مثقلا بالغياب، لم أسمعه إلا في قريتي، مسكونا بموسيقى الحنين والسكينة ونداءات خفية عرفتها من لغتها القديمة ومن أصوات منشديها"[14].

يختلط في ذهن البطل صوت التراتيل القرآنية مع أصوات منشدي الحضرة وهم يرددون أهازيجهم وصلواتهم بلحن خفي وعذب. كذلك وهو يواصل الحديث عن جنازة جده يذكر لون ألبسة الملائكة التي رآها حاضرة هناك والتي تشبه ألوان ألبسة الصوفية" (...) تذكرت فجأة ما كان يقوله جدي سيدي محمد، أبو والدي، من قصص كانت تغريني وتغويني بشكل عجيب لدرجة أني عقدت صداقات عجيبة مع الملائكة التي كان يروي سيرها كأنه يعرفها. كنت أراها مثلا بعيون واسعة،

---

[13] السيرة، ص23

[14]–السيرة، ص21.

وقلوب مفتوحة، تشبه ألبستها قوس قزح". هذه الألوان التي هي ألوان قوس قزح وهي سبعة ألوان، هي نفسها الألوان التي يرتديها المتصوفة وهم يؤدون الرقصة المثنوية[15].

3. طريق الوصول إلى الله: دلالات الأسماء

جعل الكاتب مدار عمله الروائي رحلة تخيلية يقوم بها البطل في معراج نحو عوالم أخرى لا تشبه عالمه الحقيقي. وهو ما اجتمع المتصوفة على نعت هذا الطريق أو الرحلة بـ"سفر" أو "حج" ومن عزم على ذلك سُمي سالكا يسير بمقامات متعددة"[16]. ليتوصل بذلك إلى المعرفة وإلى الحقيقة فيصير عارفا. وهذا الطريق الصوفي يقترب من الرحلة التي خاضها الكاتب رفقة الشيخ الأكبر ابن عربي، لتتسلمه بعد ذلك شخصيات أخرى، سلكت به معارج السماوات إلى عوالم صوفية، يتخطى فيها البطل/الكاتب ظلمات عديدة يتجاوز فيها ملكة التفكير واستخدام العقل، إلى ملكة خاصة يسميها أهل الطريقة" الكشف".

وهوما يعتمده الصوفي في الوصل إلى المعرفة بالاستناد على" رؤية بالقلب لما هو مخبوء في العالم غير المرئي بواسطة نور اليقين"[17]، فنور اليقين هو وسيلة البحث عن اللاموجود في العالم المادي، القابع في غياهب العالم النوراني البرزخي، الذي هو أرض الحقيقة عند الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي[18] في سدرة النتهى.

لقد وصل البطل في نهاية رحلته إلى سدرة المنتهى وهناك توحد مع ذاته، وعرف نفسه عندما اقترب من الحقيقة، ولولا هذه الرحلة وذلك المعراج، وتلك العلامات والدلالات والإشارات، والحجب

---

[15] نسبة إلى أشعار المتصوف الأعظم جلال الدين الرومي الموسوم في ديوانه الشعري " المثنوي".

[16] لعلاونة محمد الأمين، تجليات ما بعد الحداثة في الرواية الصوفية المعاصرة . "رواية الخيميائي . و" قواعد العشق الأربعون"، و" السيمورغ" . أنموذجا، ص33.

[17] عبد اللطيف الطيباوي، التصوف الإسلامي العربي . بحث في تطور الفكر العربي، دار العصور للطباعة والنشر، ط1، 1927، ص135.

[18] ينظر: المرجع السابق، ص34.

التي كشفت، والأنوار التي لامست شغاف قلبه، وهو يصارع هول الصعود والارتقاء، لَمَا توحد مع ذاته، ولما كان هو أنا[19].

قلنا سابقا أن الذي يمر بهذه الرحلة ويتلحف عباءة الصوفي يسمى سالكًا، ولقد ورد هذا الاسم بدلالاته في أحد مشاهد المعراج التي عاينه البطل، عندما تحدث عن رفيق آخر له في سفره نحو الأعلى وهو **مولاي السالك** فيقول:" كانت لحظة انفصال الروح عن الجسد قاسية، بينما كان مولاي السالك كما سمعت المنادين له، ذو اللحية البيضاء، يمد لي يده ويسحبني نحوه..."[20]. إنه المنقذ أو الولي الصالح في عرف الصوفيين، كما البطل هو المريد.

لقد كانت هذه الرحلة وما جابه فيها البطل/المريد من أهوال بدء بانخلاع روحه عن جسده رحلة ميلاد ثانٍ، حدثت له هناك في مكان آخر غير الدنيا، ميلاد جاء بعد موت. فمولاه السالك هو من قام بتغسيله وتعطيره، إنه كما يصفه الكاتب" رجل ليلة الرحيل الأخيرة"[21]. أو رجل الموت كما يلقبه.

3. تعالق الخطاب السيري مع الخطاب الصوفي:

كانت عتبة العنوان وباقي فصول الرواية تظهر للقارئ ذلك التماهي بين السيرة كحياة معاشة وبين كتاب (سيرة المنتهى) كرواية تخييلية صوفية، سيرة عاشها الكاتب كما اشتهته الحياة أن يعيشها، وكتبها كما يشتهي هو أن يكتبها إذ يقول:" لقد عشتها كما اشتهتني لأنها كانت الأقوى. لم أكن استثناء عظيما في هذه الدنيا، ولم أكن إلها صغيرا، لكنّي لم أمر على هذه الحياة كغيمة جافة"[22]، ليكون واسيني بطل الحكاية هو نفسه كاتب الحكاية. وفي هذا النص يتأرجح

---

[19] ينظر: السيرة، ص18.

[20] السيرة، ص23.

[21] السيرة، ص24.

[22] السيرة، ص40.

السرد بين عوالم ثلاث السيرة والتخييل والتصوف، لتكون هذه الرواية سيرة المنتهى ونهاية الرحلة بشكليها التخييلي والصوفي.

تمتاز السيرة بأنها خطاب وجود تحرره الذات في نص مرجعي لغايات عدة تتباين من كاتب لآخر. كذلك هو الخطاب الصوفي الذي يتمحور حول الذات ورحلتها في هذا الوجود. في معراجها نحو التطهر، وبلوغها معارج العارفين. ويعد البحث عن **الذات** في هذه الرواية ذات الطابع الصوفي حديثا مخاتلا؛ حيث أن الذات فيه" قلقة في بحثها عن كينونتها وسط رؤى برزخية، تتدرج فيها لتصل إلى حقيقة يتنازع فيها المُطلق . الصوفي"[23]. تظهر فيه ذات البطل شفافة وضبابية عند المتصوفة، وقلقة وجوديا عند الكاتب. ذات تحتكم لثنائية الحضور والغياب؛ حضور الروح في غياب الجسد.

ظهرت السيرة في نص واسيني عبر شخصيات حقيقية عايشها الكاتب ردح من الزمن وهناك منها من سمع عنه وأخذ من جيناته رغم بعد الزمن بينهما، وفي رحلة المعراج التي سلكها البطل نجد حضورًا لتلك الشخصيات كمرافقين ومساعدين له، ومنافحين عنه كلما اشتدت عليه خطوب الطريق؛ نجد منهم الجد الأول الروخو الذي تربطه بالبطل علاقة روحية صوفية شفافة، تغسلها الشمس بأشعتها الذهبية حينما تشرق، ويبللها ندى الصباح. يشبه البطل جده الروخو كثيرًا هكذا أخبرته جدته(حنا فاطنة) وطلبت منه أثناء لقاء بها في معراجه أن يكتب سيرته . أي سيرة جده . لأنه موكل بذلك منذ زمن.

وهكذا بدء البطل يصف علاقته بجده الأول الذي قرأ عنه وسمع أخباره فامتلاء به دون أن يقابلها حقيقة يقول:" (...) أتشبث بكل قواي بالجبل الذي يوصلني إلى جدي لأراه للمرة الأولى وأسأله كما أشتهي عن الزمن الآفل وعن قلب طفولتي التي كانت تركض أمامي في عنفوانها كما في أيامها الأولى"[24]. ففي سيره كانت روحع معلقة به وتبحث عنه لذا أكمل سيره وهو يقول:

---

[23] السيرة، ص39.

[24] السيرة، ص33.

"(...) واصلت تسلقي مغلفا بقناعتي أني سأصل إلى المنتهى مهما كان الثمن وأنيّ لم أخطئ موعدي، وأن جدي ينتظرني"[25].

نجد كذلك حضورًا للأم (ميما ميزار) التي نذرت نفسها لتربية الكاتب وإخوته بعد استشهاد والده. ومما يستعيده الكاتب من حضور الأم في طفولته، مرافقته لها إلى حمام النساء(حمام الخالة وردة) حيث يتلبس الطفل الذي تدعوه شقيقته "لزعر الحمصي" بالشيطان. وفي تلك الرحلة يسرد الكاتب شيء عن أسرته، حيث تتولى الأم سرد قصتها مع الأب وقصة الأب مع الفرنسية ميا، كما يحكي الكاتب قصة شقيقه عزيز الذي قضى عليه السرطان.

كل الذين يقودون الكاتب في معراجه نحو غايته هم من أسرته، البعيد منهم والقريب: جده الأول الروخو، مولاه السالك، جدته حنا فاطنة. ليعترف في آخر الرواية أن كتابة هذه السيرة كان عملاً مأجلاً، تدرج واسيني في كتابته في عدة أعمال أخرى، وقد حان الوقت ليسجل تفاصيل رحلته في الحياة وقد قارب الستين سنة، متلبسًا عباءة الصوفي، تقوده الرغبة في الانعتاق من هذه الحياة التي قدر له أن يعيشها دون إرادة منه، ليسردها في قالب صنعه كما يشاء هو.

خاتمة:

وصلنا لختام هذه المداخلة التي قاربنا فيها نصًا مختلفا وكتابة مخاتلة، ارتأى واسيني الأعرج أن يختار لها عنوانًا مغري ومفخخا في نفس الوقت عندما صرح في قسم من الرواية بقوله لتكون سيرته والنهاية التي يريد لحياته أن تكون كذلك، كما كانت سدرة المنتهى في المخيال الديني وفي كتاب الشيخ الأكبر محمد الدين بن عربي نهاية المعراج نحو السماوات العلى.

يبدأ الكاتب سرد سيرته في القسم الأول من الرواية الذي عنوانه بـ"رؤيا التماهي الأخير" بقص رؤياه وهو غارق في نومة بعد أن كان يطالع كتاب" الإسراء إلى مقام الأسرى" أو "كتاب

---

[25] السيرة، ص34.

المعراج" للشيخ الأكبر محي الدين بن عربي. الذي سيرافق الكاتب في رحلته العلوية وهو يصعد نحو "معراجه الخفي" هي سيرة نحو عالم فوقي حيث يقتحم الكاتب/ المُريد مع شيخه مسالك العوالم الخفية، ليتلقف" سلسلة من العلامات والمفاتيح والخرق الخضراء التي لم اكن أفهم معناها" (السيرة: ص18)، لقد اصطفاه الشيخ الأكبر ليكون مريده ورفيقه نحو معارج التطهر ومخبآت الأسرار.

أراد الكاتب أن تكون الرواية تهجينًا صريحا لمختلف الخطابات السردية بدء بالسيري فالتخييلي فالصوفي، يشدها جميعا خيط رفيع، لا يمكن القبض عليه إلا بإعمال آليات الحفر والتأويل، ليتمكن القارئ من وضع يده على مبتغى الكاتب من وراء عمله هذا.

ويبقى نصا سيرة المنتهى عميق الدلالات ومتنوعها، ولكلٍ وجهته التي يقتحم بها عوالمه الداخلية، وما مقاربتنا هذه سوى، لنشرع باب القراءة والتأويل نحو هذا النص الروائي المعاصر الذي برزت فيه الرواية الصوفية بتقنياتها الحداثية ومزجه بين تراث ديني وعقدي، ورؤى معاصرة للإنسان وللوجود.

قائمة المصادر والمراجع:

1. المصادر:

. واسيني الأعرج، "سيرة المنتهى عشتها...كما اشتهتني"، ط5، 2015، دار البغدادي للطبع والنشر والتوزيع، الجزائر العاصمة.

2. المراجع:

- إحسان إلهي ظهير، التصوف المنشأ والمصادر، إدارة ترجمان السنة، باكستان، ط1، 1986.
. جميل حمداوي، السيميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، الكويت، مارس ع(3)،1996م.
. عبد اللطيف الطيباوي، التصوف الإسلامي العربي . بحث في تطور الفكر العربي، دار العصور للطباعة والنشر، ط1، 1927.

. فيليب لوجون، السيرة الذاتية(الميثاق والتاريخ الأدبي)، تر: عمر حلي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت/لبنان،1994.
. ممدوح فراج النابي، رواية السيرة الذاتية في مصر، دراسة في التأصيل والتشكيل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط1، 2011م.

3. المقالات:

. شيخ عبد الرزاق، قراءة في عنوان وغلاف رواية سيرة المنتهى، للروائي واسيني الأعرج، حوليات الآداب واللغات، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف، المسيلة. الجزائر، عدد 09 مجلد 02 نوفمبر 2017.

4. الأطاريح:

. لعلاونة محمد الأمين، تجليات ما بعد الحداثة في الرواية الصوفية المعاصرة . "رواية الخيميائي . وقواعد العشق الأربعون"، و" السيمورغ" . أنموذجا، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه . ل.م.د . إشراف: علي حمدوش، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري . تيزي وزو . الجزائر.